

الأسرة والمدرسة كوسائط لنقل القيم

د. عبد الحميد خزار
قسم علم النفس وعلوم التربية - جامعة باتنة

تمهيد:

إن التربية في جوهرها عملية قيمية، فهي تتناول الفرد البشري بالتشكيل والتوجيه والتقويم في إطار قيم المجتمع الذي يوجد فيه، وإن هذه القيم تنتقل إلى أفرادها عن طريق المؤسسات التي سنتعرض لها من خلال هذا العرض، إلا أن تأثيراتها على الفرد متباينة تبعاً للمرحلة العمرية التي يمر بها؛ ففي السنوات المبكرة تلعب الأسرة دوراً أساسياً في ذلك، ومع اتساع البيئة الاجتماعية للفرد تبدأ جماعات الأصدقاء والمدرسة في ممارسة أدوارها المفترضة في هذا الشأن. وكذلك التعرض لوسائل الإعلام.

قد تتفق أو تختلف هذه المؤسسات من حيث المبادئ التي تسعى لتأكيداها من قيم واتجاهات طبقاً لظروف المجتمع الذي توجد فيه. إلا أننا لا يمكن أن نتجاهل التداخل بين تأثير كل منهما في نفوس الأفراد، بحيث لا يمكن عزل أثر إحداهما عن الأخرى. إذا كان التركيز على الأسرة والمدرسة لأنهما المؤسسات اللتان تمارسان التربية المباشرة، فهذا لا يقلل من تأثير بقية المؤسسات - التي ذكرناها - في التنشئة الاجتماعية ونقل قيم المجتمع للأفراد.

مفهوم القيم:

نظراً للاختلافات الكثيرة حول تحديد مفهوم للقيم، فإنه يتعذر علينا تعريفها إجرائياً. ولذلك سنذهب مباشرة إلى تحديد مفهوم للقيم؛ وليس من السهل التوصل إلى مفهوم متفق عليه للقيم لأن هناك جذباً في النظريات المتناسقة وخصباً في النظريات المتضاربة كما يذكر. لهذا يقول جون ديوي: إن الآراء حول موضوع القيم تتفاوت بين الاعتقاد من ناحية؛ بأن ما يسمى قيماً ليس في الواقع سوى إشارات انفعالية وتعبيرات صوتية، وبين الاعتقاد في الطرف المقابل بأن المعايير القبلية العقلية ضرورية، ويقوم على أساسها كل من الفن والعلم والأخلاق (أنظر فوزية نياي 1966، 53). إذا كان هناك اتفاق على أن القيم مرغوبة من الجميع وتحقق أهداف المجتمع، وتدفع سلوك أفرادها في الاتجاه الصحيح؛ فإنهم اختلفوا حول مفهومها؛ لأن معالجة مسألة القيم تمت بطرائق واتجاهات

مختلفة، بعضها فلسفي، وبعضها سيكولوجي أو سوسولوجي، الأمر الذي أدى إلى تعارض المفاهيم وعدم التوصل إلى مفهوم عام وشامل للقيمة.

هكذا يمكن القول أن أغلب التعاريف عبرت عن اتجاهات أصحابها أكثر مما عبرت عن موضوع القيمة، مما أدى إلى عدم تحديدها بدرجة تجعلها تختلف عن المحددات الأخرى للسلوك. ولكننا يمكن أن نقول بأن القيم تتميز عن غيرها من مظاهر الشخصية بأنها تهتم بالأهداف البعيدة، كما أنها تترتب فيما بينها ترتيباً هرمياً، أي أن بعض القيم تسيطر على غيرها أو تخضع لها.

فالقيمة إذن هي: مجموعة أحكام يصدرها الفرد على بيئته الإنسانية والاجتماعية والمادية، وهي في بعض جوانبها ناتجة عن تقويم الفرد أو تقديره، لأنها في حقيقتها نتاج استوعبه الفرد وتقبله. بحيث يستخدمها كمحكات أو معايير. إذن فالقيم عبارة عن معايير اجتماعية توزن بها الأفعال، إلا أنها ذات صبغة انفعالية تتصل من قريب أو من بعيد بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة، ويمتصها الفرد من بيئته الاجتماعية، ويقوم بها موازين يزن بها الأفعال. (فؤاد البهي 1958، 235)

أهمية القيم:

تبرز أهمية القيم باعتبارها الغاية المثلى، لأنها قوة دافعة للسلوك الإنساني. فالقيم هي التي ترقى بالإنسان إلى أسمى درجات الإنسانية، وبدونها يفقد المجتمع المبادئ والأصول والقوانين التي تنظم حياته (سامية عبد الرحمن 1992، 7).

إن رقي المجتمعات لا يقاس بما حققت من منجزات العلم، وما اكتشفت في عالم المادة من مخترعات فحسب، وإنما يقاس بسيادة القيم فيها. ولهذا يرى أنور الجندي " أن القيم الخلقية هي التي تحقق الروح الخيرة، لأن هدفها الأول هو بناء إنسان خير، يكف شره عن الناس، ويعمل باستمرار لخير نفسه خير أمته. فالأخلاق الحسنة من عوامل النهوض والأمن والاستقرار الاجتماعي، وسوء الأخلاق من أسباب تفكك المجتمع وانهيار الدولة وسقوط الحضارة" (أنور الجندي 1977، 72).

والقيم الخلقية شاملة لجميع القيم سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، لأنها منظمة لسلوك الأفراد، لتحقيق الهدف الأسمى للمجتمع وتعمل على تماسك أفرادها.

كما أن القيم الخلقية تضبط السلوك الإنساني، وتلزم الإنسان بالجانب الخير منه، فيتربت على ذلك

أن يصبح الإنسان مسئولاً عما يصدر عنه من أفعال ويذهب محمود السيد السلطان إلى أنه "بتحديد هذه المسؤولية تتكون في الإنسان إيجابية عالية نحو فعله وفعل غيره؛ حيث يكون إيجابياً مع نفسه فيهبها، كما يكون إيجابياً مع ما يحدث في مجتمعه من أحداث" (محمود السيد السلطان، 1981، 70).

ولا يمكن أن نغفل عن الدور المهم للقيم في التوجيه والإرشاد النفسي، في وضع المعايير لانتقاء الأفراد لبعض المهام والمسؤوليات في المجتمع، كذلك تسهم في تحديد أهداف التعليم، كما أنها تؤدي دوراً مهماً في التوافق النفسي والاجتماعي للأفراد، وتزودهم بالفاعلية والإيجابية، وتساعد في ربط أجزاء الثقافة ببعضها البعض، وتعطيها بعداً عقلياً يستقر في ذهن أعضاء المجتمع المنتمين إليه.

تؤدي القيم دوراً مهماً في إيجاد بيئة تربوية مناسبة بين الأفراد في المواقف المختلفة عند وضع الأفراد في جماعات ذات إطار قيمي متشابه لتكون أكثر تفاعلاً.

وسائط نقل القيم

إذا كانت القيم بهذا المستوى من الأهمية، فما هي المؤسسات التي تتولى نقلها للأجيال الناشئة؟ هناك العديد من المؤسسات التي تحاول المجتمعات نقل قيمها من خلالها إلى أبنائها، حتى تؤهلهم ليصبحوا قادرين على التفاعل الإيجابي ضمن النسق القيمي للمجتمع الذي ينتمون إليه. وبذلك يستطيع كل واحد منهم أداء الدور المنوط به في المجتمع بصورة فعالة، وهي عملية مستمرة طوال حياة الفرد.

يقوم بهذا الدور مؤسسات لها نظامها وبرامجها المحددة، ومن أهمها؛ الأسرة والمدرسة، وجماعات الرفاق، ووسائل الإعلام، ودور العبادة. وتمارس هذه المؤسسات تأثيرات متباينة على الفرد تبعاً للمرحلة العمرية التي يمر بها. ففي السنوات المبكرة تؤدي الأسرة دوراً أساسياً في ذلك، ومع اتساع البيئة الاجتماعية للطفل تبدأ جماعة الرفاق والمدرسة في ممارسة أدوارها المفترضة في هذا الشأن، كذلك التعرض لوسائل الإعلام، وقد تختلف أو تتفق تلك المؤسسات من حيث المبادئ التي تسعى لتوكيدها من قيم واتجاهات، ذلك طبقاً لظروف المجتمع.

تجدر الإشارة إلى أن هناك قدراً من التداخل بين تأثير كل منها في نفوس الأفراد، بحيث لا يمكن عزل أثر إحداها عن الأخرى، ولكن لاعتبارات نظرية نقوم بعرض كل منها بصورة مستقلة، كما

سنركز على بعضها وليس جميعها ومرد ذلك هو افتراضنا بأن الأسرة والمدرسة من أهم المؤسسات التي تسهم في التنشئة الاجتماعية للأفراد مع عدم إغفال دور بقية المؤسسات الأخرى وبالأخص جماعة الرفاق ودور العبادة ووسائل الإعلام التي سنتعرض لها باختصار .

أولا- الأسرة

تعريف الأسرة: تأتي في مقدمة المؤسسات الاجتماعية المسؤولة عن العملية التربوية، ولهذا يعرفها أحمد الفنيش بأنها: " وحدة وظيفية تتكون من الزوج والزوجة والأبناء، يرتبطون برباط الدم، وتجمعهم أهداف مشتركة" (أحمد الفنيش 1999،47). كما يذهب محمد الهادي عفيفي إلى أن "الأسرة تعتبر الوعاء الثقافي الأول الذي يشكل حياة الفرد ويتناوله بالتربية بما فيها من علاقات وأنماط ثقافية تعبر عن الثقافة الأم، كأساليب الزواج والعلاقات الزوجية ومركز الرجل والمرأة وعلاقة الآباء بالأبناء ووسائل الكسب ومعنى التماسك العائلي والمسؤولية الاجتماعية" (محمد الهادي عفيفي 1971، 168).

تعتبر الأسرة المؤسسة الأولى التي تستقبل الطفل عند خروجه من رحم الأم، لتمثل بذلك الرحم الثقافية التي سيكون لها تأثير في تشكيل شخصيته مستقبلا.

ونظراً لأهمية الأسرة فإن المجتمعات كلها، وعلى مر التاريخ، تولي أهمية كبرى للأسرة، وتعمل للمحافظة على تماسكها وربطها ببقية المؤسسات الاجتماعية الأخرى التي تكمل دور الأسرة وتساهم في إشباع حاجات الطفل. إن استقرار شخصية الطفل وتفاعله الإيجابي مع محيطه يعتمد أساساً على ما يسود الأسرة من علاقات مختلفة.

وظائف الأسرة:

يمكن أن نذكر أهم الوظائف التي تقوم بها الأسرة في النقاط التالية:

1- التنشئة الاجتماعية للأطفال، بحيث يتعرفون على بيئتهم، وثقافة عصرهم، والأنماط العامة للثقافة التي ينتمون إليها، فيتعلمون فيها القيم وطرق إشباع الحاجات، والعقائد الدينية والقوانين، والاتجاهات الاجتماعية...إلخ

2- تمد الطفل بطرق وأساليب التكيف مع المجتمع، بحيث تختار له ما تراه هاما من بيئته، وتقوم بتفسيره وتقييمه وإصدار الأحكام عليه، مما يؤثر على اتجاهات الطفل خلال مراحل حياته، فالطفل ينظر إلى الميراث الثقافي من وجهة نظر أسرته.

3- يتعلم الطفل من أسرته اللغة والتعبير وطريقة الكلام، كما أنها تقدم له الدعم النفسي والاجتماعي والاقتصادي، وتساهم مساهمة كبيرة في اتزانه الانفعالي.

4- الأسرة تطبع الثقافة التي تنقلها لأبنائها بطابعها الخاص بها، فتتكون معاني الأبناء وقيمهم وفقا للأسر التي يولدون فيها. ويتشربون منها هذه المعاني والقيم.

إن جانبا كبيرا من التربية كعملية إعداد للحياة تتم داخل الأسرة ؛ لأن الأسرة تعتبر الوعاء الاجتماعي الذي تتم فيه بذور الشخصية الإنسانية. لهذا يرى سيد إبراهيم الجبار أن "القيم التي يتشربها الإنسان متأثرة تماما بنظرة أسرته إليها، بل هي في الحقيقة تكاد تكون تجسيدا لها وتعبيرا عنها" (سيد إبراهيم الجبار 142، 1978).

ولذلك فإن ذهاب الطفل إلى المدرسة، واتصاله بالمؤسسات الاجتماعية الأخرى، لا يعني التخلي عن مكتسباته الأسرية، بل يتفاعل مع تلك المؤسسات من خلال خبراته الأسرية ومؤثراتها الثقافية. فالأسرة تعد من أهم الجماعات الاجتماعية الأولية التي تتولى غرس قيم المجتمع وفي الوقت نفسه غرس القيم التي تعتقها الأسرة ذاتها. وقيم الأسرة تتضمن كل أساليب الحياة والتفكير كما أن الأسرة تقوم بدور وسيط في نقل التراث وإحيائه وتبسيطه وتظل لسنوات طويلة هي المصدر الوحيد الذي يتوسط بين الطفل وثقافة المجتمع ومن هذه الثقافة يمتص الكثير من المعايير والأحكام التي تؤثر على أسلوب حكمه على المشكلات وأحلقها (ضياء زاهر، 1986: 63) على الرغم من التغيرات التي تعرضت لها الأسرة الحديثة من حيث حجمها ووظائفها فإنها مازالت من أهم القوى الاجتماعية في التشكيل والتوجيه التربوي ونقل القيم إلى الفرد والمشاركة في الوظيفة التعليمية عن طريق المتابعة والإشراف المنظم في كثير من الأحوال على تقدم أبنائها المدرسي وإنجازهم لواجباتهم المدرسية (سنا الخولي، 1979: 61).

في ضوء ما تقدم يتضح أن الأسرة أول مجتمع يقضي فيه الفرد حياته الأولى ويرتبط بها عضويا وعاطفيا في صغره وكبره، وفيها يتم تشكيل الطفل لكونها أول من يمدّه بالنموذج القيمي الذي يمكن أن يقلده وكونها أول إطار مرجعي يحدد ما هو الصواب وما هو الخطأ في السلوك الواجب على الطفل إتباعه، حتى يستحق اكتساب عضوية الأسرة ويتم الاعتراف به وقبوله داخلها، فهي تعمل كناقل لقيم وعادات وتقاليد المجتمع الذي ينتمي إليه الطفل وتحدد له وفقا لمكانتها الاجتماعية نوعية الواجبات التي عليه تشربها ليخرجها سلوكا في المستقبل، مما يؤكد دورها الواضح في

التنشئة الخلقية وتهذيب السلوك. لذا فمن الضرورة أن تحرص الأسرة على كل ما يؤدي إلى النهوض بأبنائها لما فيه خيرهم وصلاحهم.

ثانيا- المدرسة:

المدرسة هي المؤسسة الاجتماعية المتخصصة التي تسند إليها مسؤولية تنظيم المحتوى الثقافي والحضاري للمجتمع وتقديمه بطريقة مناسبة للأجيال، حتى تنمي فيهم القيم الثقافية والأخلاقية المرغوبة، وتمدهم بالخبرات المختلفة التي تعدهم للحياة في المجتمع الذي ينتمون إليه. ويعرفها أحمد علي كنعان : " أن المدرسة بيئة نقية أوجدها المجتمع بهدف التربية إذ تحاول أن تكسب أفرادها القيم الإيجابية من خلال المناهج ومن تفاعل المتعلمين مع المعلمين وإدارة المدرسة، وهذا كله يساعد على اندماج المتعلمين في قيم ومعايير واتجاهات محددة تتخطى الاختلافات الطبقية، وتساعد في تنقية القيم مما يشوبها، وغرس قيم جديدة وتبني نسقا قيميا مرغوبا لدى المتعلمين" (أحمد علي كنعان، 1990، 204). وتعد المدرسة من أهم المؤسسات الاجتماعية التي تمارس تأثيرا أكبر في تكوين شخصية الأفراد، بما يحقق النمو السليم للفرد وبما يحفظ للمجتمع وحدته وتجانسه وتماسكه.

فهذه المؤسسة الاجتماعية التي أوجدها المجتمع لتربية أبنائه، ونقل التراث الثقافي إليهم، تعد من أهم المؤسسات المسؤولة على تعليم القيم ونشرها بعد الأسرة، فالمدرسة تقوم بمشاركة الأسرة في مسؤولياتها في تكوين القيم التربوية لدى الأفراد. وذلك لكون المدرسة مصدرا للعلوم المختلفة والاتجاهات والمهارات التي تعد بدورها منطلقات أساسية لتعليم القيم.

وظائف المدرسة:

للمدرسة العديد من الوظائف:

أ - وظيفة اجتماعية: تعنى بالتغيير الاجتماعي بمفهومه الواسع.

ب-وظيفة استثمارية: تعنى بإعداد الطاقات البشرية لتكون عاملا فعالا في استثمار الموارد والإمكانات الطبيعية والبشرية المتوفرة في المجتمع.

فالمدرسة بهذا توفر بيئة منقاة تتكون من مجموعة خبرات لتنشئة الأطفال على أنواع السلوك ووجهات النظر والقيم التي تعتبر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى حياة الجماعة (محمد الهادي عفيفي، 1971، 168). مهمة المدرسة إذن هي العناية والمحافظة على مقومات الحياة

الإنسانية، مكونات الحضارة التي يعيشها الناس، وما عرفوه من اكتشافات علمية، وما مارسوه ويمارسونه من أنماط سلوكية وما يتعاملون به من قيم ومفاهيم، وما وقفوا عليه من ألوان المعرفة وأنواع الخبرة (أحمد الفنيش 1999، 47).

مما سبق يمكن أن نعدد وظائف المدرسة فيما يلي:

1- تيسير التراث وتنقيته من الشوائب التي لحقت به وإضافة الجديد إليه وترتيبه بتسلسل منطقي، وتقديمه بشكل تدريجي مما يتلاءم وقدرات المتعلمين، ويتناسب مع خصائص نموهم، ومراحل التعليم التي يمرون بها.

2- لا بد أن تقوم المدرسة على نظام تربوي وتعليمي تحدد فيه الأهداف وتسطر المناهج وطرق التدريس وأساليب التقويم، كل ذلك يهدف إلى تنمية الخبرات وتعميق معارف المتعلمين بشكل يسمح لهم بأداء دورهم في الحياة بعد ذلك.

3- الاضطلاع بمهمة التوجيه التربوي وإعداد الناشئة للتكيف مع مستجدات الحياة المعاصرة، والتغلب على تعقيداتها.

ومن هنا كانت التربية ولا تزال " في خدمة المجتمع - تعمل منه وله - بهذا المفهوم تصبح ذات وظيفة واضحة المعالم، ولا تسبح في فراغ، فالجيل الصاعد يحتاج إلى قيم واتجاهات وبناء جسمي سليم " (أحمد علي كنعان، 1990، 204). وهذا من أهم الأهداف المباشرة للتربية، التي تعمل على تغيير وتعديل سلوك الأفراد بإكسابهم قيما تتماشى والتغيرات التي يعيشها المجتمع.

فالمدرسة هي التي تقوم بتنقية المعرفة المترakمة من الشوائب التي لحقت بها وتبسطها وتنقلها للأجيال الصاعدة، وهذه المعرفة تتضمن القيم المعنويات والمعايير المتوازنة جيلا بعد جيل، كما أن من وظائفها تبني التغيرات والتجديدات التي تطرأ على المجتمع، ولا تقتصر مسؤولية المدرسة على إعداد الفرد للتعامل مع مجتمع يكون التغيير فيه سريعا، بل يجب أن يستمر النظام التعليمي في إمداده بأشخاص يقومون بواجب تطوير المعارف والأساليب الجديدة، ومن ثم فهي "أداة للتجديد والتغيير وتنمية القوى البشرية وسيلة للحراك الاجتماعي، وللتطبيع وللتهيئة الاجتماعية " (ديفيدا جوسلين، 1972: 31)

أوضحت بعض الدراسات الدور الذي تؤديه القيم في تحديد شكل العلاقات بين المعلم والتلميذ. فتزايد التقبل من جانب المعلم نحو تلاميذه يترتب عليه زيادة اهتمام التلاميذ بالعمل المدرسي وزيادة

ابتكارهم، وزيادة كفاءتهم في التحصيل المدرسي.(عبد اللطيف محمد خليفة، 1991: 200)
مما سبق تظهر أهمية المنهاج أو الكتاب المدرسي الذي يتبوأ مكانة مرموقة في نظامنا التعليمي، بحيث يقوم بالدور الرئيسي في عمليتي التعليم والتعلم وكذلك يسهم في غرس القيم التربوية في عقول التلاميذ. ولكي يتم تحقيق هدف التربية التي تتطلع إلى تكوين الإنسان المؤمن بالقيم والاتجاهات السليمة كان لابد للمربين أن يقوموا بتوفير متطلبات تلك التربية وتوفير المناخ الملائم. هكذا يتأكد لنا أن الاهتمام بدراسة القيم والاتجاهات والمعتقدات أمر له أهمية بالغة في وضع المناهج الدراسية في جميع مراحل التعليم، حيث يتحقق من خلال هذه المناهج التوازن الذي يستهدفه المجتمع في تكوين شبابه من النواحي القيمة، الوجدانية والثقافية، ويؤدي فقدان التوازن بين هذه

القيم والتحصيل الدراسي إلى جيل مضطرب نتيجة فقدان التوازن بين ما يحصله من علوم وبين حقيقة القيم والاتجاهات التي يثبت العلم التجريبي أنها موجودة بالفعل. (محمد الهادي عفيفي، 1970، 186)

مما سبق يتبين لنا التأثير الكبير للمدرسة على الفكر القيمي للتلاميذ كتوجيه سلوكهم وتعديل نوازعهم واتجاهاتهم لذلك يجب أن تراعى المناهج التعليمية خاصة ونظم وبرامج المدرسة عامة، ربط الأهداف التعليمية بالأهداف الخلقية بحيث يكون التعليم وسيلة للترقية الخلقية وتزكية السلوك وغرس الآداب والقيم الإسلامية والمثل العليا والفضائل في النفس، وتنمية القدرة على التمييز بين الهدى والضلال، الخير والشر، الحق والباطل، الصواب والخطأ، الحسن والقبيح، وفهم الدور الخلقى والاجتماعي الإيجابي الذي يمكن أن يساهم به الفرد في الحفاظ على كيان مجتمعه من الانحلال والتفكك.

هكذا تتأكد خطورة المؤسسات التعليمية بما فيها من مناهج وعلماء مربين في توجيه الناشئة، لهذا يتحتم علينا الاهتمام بأن يكون الوسط التعليمي نقياً طاهراً يدعم القيم والأخلاق الحميدة ويُقوِّم الاتجاهات والميول الخاطئة.

كخلاصة لما سبق نقول أن للمدرسة أهمية كبرى في اكتساب القيم لكونها تستقبل الأطفال في سن التشكيل والتطبع فتعمل من خلال هيئات التدريس على تقديم قدوة أخرى ونموذج قيمي بديل عن الوالدين يتمثل في المعلم، وكذلك تقديم مناهج تحتوي على ثقافة وقيم المجتمع الذي ينشد غرسها

في أفرادها، وفي نفس الوقت تمدهم بكل ما هو جديد ومفيد وتسعى لتوسيع آفاقهم وافتتاحهم على قيم وثقافات أخرى وافدة بعد مواعمتها لتتفق وما يرغبه المجتمع في أبنائه وباكتساب الطفل لهذه القيم تتحدد مكانته بين أفرانه داخل المدرسة ويتم القبول به كفرد من خلال ما يظهر في سلوكه من قيم يرتضيها المجتمع خلال تعاملاته مع من يحيطون به.

ثالثا - دور العبادة :

من المؤسسات المهمة والمساهمة في نقل القيم إلى الناشئة خاصة عندنا نحن المسلمين إذ يعتبر المسجد من أهم المؤسسات التعليمية، ولذلك كان أول مؤسسة بناها الرسول(ص) بعد وصوله المدينة المنورة مهاجرا إليها، فكان النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، لأن الهدف من بنائه لم يكن إيجاد مكان للصلاة فقط، بل كانت مهمته أعمق من هذا، فكانت تتم فيه الصلاة والمشاورة استقبال الوفود، والقضاء، والتعليم، حيث كان الصحابة يلتقون حول رسول الله يأخذون عنه مبادئ الدين، ونظم المجتمع الجديد، وآيات القرآن الكريم، وفي هذا المسجد امتزجت النفوس والعقليات وقويت الوحدة وتآلفت الأرواح. (أحمد شلبي، 1980، 56 . 57).

المسجد منذ تأسيسه لم تقتصر وظيفته على الجانب التعبدى بمفهومه الضيق، وإنما امتدت لتشمل مهمة التربية والتعليم بالمعنى الشامل فتشمل جوانب الحياة كلها، فكان له دور في المجال السياسي، فمنه تذاق الأخبار الهامة التي تتعلق بالصالح العام، وكان الرسول(ص) يستقبل فيه الوفود التي تأتي لأغراض مختلفة، فتعقد فيه المعاهدات أو إعلان الإسلام، أو طلب معونة أو غير ذلك.

وقد تخرج من المسجد الفقهاء والعلماء والقادة الصالحون في شتى مجالات الحياة، وإن تغيرت هذه الصورة الناصعة للمسجد بعد الانحطاط الذي حل بالمسلمين، فأصبح مرفقا عامه يُسَيَّر ولا يُسَيَّر ويُوَجَّه ولا يُوجَّه، ورغم ذلك فإن تأثيره على النفوس وتكوين القيم لدى الناشئة لا يزال ساريا إلى يومنا هذا.

ولا يعترف المسجد بما يوجد بين الناس من فروق اجتماعية واقتصادية جنسية أو عُمريَّة، ومن ثم يشمل قطاعات كبيرة من الناس فيقوم بتوجيههم تعليمهم ودفعهم إلى الالتزام بالمبادئ والقيم الخلقية في علاقاتهم وحياتهم العامة.

لقد اشتهر في تاريخ ثقافتنا الإسلامية مساجد مهمة كانت منارات حضارية أثرت في الثقافات

العلمية، نذكر منها الأموي في دمشق، والأزهر في القاهرة، والزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب. ويكفي أن المساجد التي أسست في الأندلس قامت بدور فعال في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا وهذا دليل على دور المسجد في التربية والتعليم.

ولا تزال المساجد تقوم بهذه الوظيفة التربوية وتحاول أن تقف في وجه الغزو الفكري الوافد علينا. وتحاول أن تؤدي دورها الثقافي والاجتماعي في محاربة الانحرافات والفساد الذي يسود المجتمع، ودعمه للقيم الخلقية الإسلامية وتميئتها لدى المسلمين ودفعهم إلى الالتزام بها في حياتهم العامة والخاصة.

رابعاً - جماعة الرفاق :

تضم جماعة الرفاق أو الأصدقاء الأفراد المتقاربين في السن أو الوظيفة أو المستوى الاقتصادي وتبدأ منذ الطفولة، وتتكون من زملاء الدراسة أو الحي أو العمل، وأهم ما يميز الفرد بنظره التكافؤ والشعور بالندية، ولهذا تتزايد درجة الترابط بينهم.

وتؤدي جماعة الرفاق دوراً هاماً في نمو شخصية الطفل وتربيته إذا توفر المجال الاجتماعي الذي يتعلم فيه الأنماط السلوكية للجماعة، وتزداد أهمية جماعة الأصدقاء في الوقت الذي انصرفت فيه الأسرة عن كثير من وظائفها الأولى بالنسبة للأطفال الناشئين وهذه الجماعة تدرّب الطفل وفق مطالب زملائه كما تنمي عنده ضميراً اجتماعياً وتوفر له مجموعة من القيم والاتجاهات الخاصة بسنه وجنسه، وكثير من المراهقين يتعلمون أشياء كثيرة عن معنى الصداقة والجنس والدين من هذه الجماعات التي ينتمون إليها في هذه السن. (محمد الهادي عفيفي، 1970: 186)

بما أن جماعة الرفاق غالباً ما تنتمي إلى فترة عمرية واحدة وشريحة اجتماعية واحدة، ومن ثمة فإن وظيفتهم التربوية قد تناصر وتؤيد اتجاهات الأسرة وقيمها أكثر مما تخالفها، كما تؤدي دوراً تربوياً في تدعيم القيم التي يسعى إليها المجتمع، إذ أن تكوينها يسمح بإمكانية الحوار دون خوف أو خشية سلطة ما، ومن وظائف تلك الجماعة أنها تساعد الفرد على الوصول إلى مستوى الاستقلال الشخصي عن الوالدين وعن سائر ممثلي السلطة، وعلى تكوين معايير للحكم على الأشياء والسلوك وتكسب أفرادها الاتجاهات والأدوار الاجتماعية المناسبة. (ضياء زاهر، 1986، 67 . 69) .

يجب أن لا نبالغ في دور جماعة الرفاق، حيث يتوقف تأثيرها في الفرد على غياب التنشئة

الوالدية، ولذلك فبقدر نجاح الأسرة في إرساء دعائم راسخة في شخصية الابن بقدر ما تقلص تأثير باقي منافذ التنشئة الأخرى في التأثير على الابن فكلما كانت علاقة الفرد بالأسرة تتسم بالقبول والتشجيع والدفء يقل احتمال تأثير الرفاق وبالعكس، خاصة في المراحل المبكرة من العمر. كما لا تفوتنا الإشارة إلى أهم الوظائف النفسية الاجتماعية لجماعة الرفاق حيث تساعد على حفظ مشاعر الوحدة ودعم المشاعر الإيجابية السارة بالإسهام في عمليات التنشئة الاجتماعية إذ تيسر الصداقة اكتساب عدد من المهارات والقدرات والقيم والسمات الشخصية المرغوب فيها اجتماعياً، ومما لا شك فيه أن الشخص يحتاج إلى حد أدنى من التفاعل الاجتماعي. إلا أنه وبغض النظر عن أية مساعدات أوجهود إيجابية يتلقاها الشخص من الآخرين فإن مجرد اجتماعه بهم يحقق قدراً وافراً من الارتياح الوجداني في ظروف الحياة العادية، وتزيد الحاجة إلى الارتباط بالآخرين عند التعرض لمشقة أو الشعور بالقلق والخوف. (أسامة سعد أبوسريع، 1993: 59).

ويشير أبو حامد الغزالي إلى وجوب التحقق من استيفاء الصديق لشروط الصداقة وهي العقل، وحسن الخلق والصلاح والكرم والصدق كما يذكر الغزالي من حقوق الصحبة الواجبة مع الأصدقاء: الإيثار المال المبادرة بالإعانة وكتمان السر، وستر العيوب والسكوت عن تبليغه مذمة الناس، وإبلاغه ما يسره من ثناء الناس عليه، وحسن الإصغاء عند الحديث دعوته بأحب الأسماء إليه، والثناء عليه بما يعرف من محاسنه وشكره على صنيعه في وجهه والدفاع عنه في غيبته، ونصحه باللطف والرفق والعفو عن زلته، وإحسان الوفاء مع أهله، والتخفيف عنه في المكاره، وإظهار السرور لرؤيته، والسلام عليه عند لقائه (أبو حامد الغزالي، 1975: 235-153) كما يقول في موضع آخر وهو يوجهنا إلى صيانة الصبي عن مخالطة قرناء السوء: "وصيانتته أن يؤديه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء". (أبو حامد الغزالي، 1975: 70) يتضح مما سبق أن جماعة الأصدقاء إحدى وسائل نقل القيم وتدعيمها إذ توفر المجال الاجتماعي الذي يتم من خلاله تعلم الأنماط السلوكية للجماعة، وتكوين معايير الحكم على الأشياء وتنمو الشخصية من خلاله حيث تشعر بالمساواة والاستقلال. وفي ظل تلك الجماعة يقل التوتر النفسي وتزداد الحاجة إليها كلما شعر بالتوتر، وللمساندة من جانب الأصدقاء أثر واضح في دعم التجاذب وتعزيز الرغبة والارتباط بهم.

خامسا - وسائل الإعلام:

إن الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام بالغ الأهمية سواء من حيث اتساعه إذ يغطي قطاعات عريضة من المواطنين يصعب أن تغطيها برامج التعليم النظامي، أو من حيث مدته إذ يأخذ نصيبا ملموسا من الوقت اليومي لكل فرد وخاصة الأطفال، كما أنه يشمل مواد مختلفة من الثقافة والتوجيه في مختلف المجالات بالإضافة إلى أنه يتميز بالاستمرار وتراكم التأثير، حيث يبدأ الفرد الاتصال بوسائل الإعلام منذ طفولته المبكرة ويمتد إلى شيخوخته، فهو بذلك يعبر أصدق تعبير عن مفهوم التربية المستمرة مدى الحياة، وطرق تحصيل المعرفة ثلاثة : المشاهدة والمخالطة والقراءة.

وقد أصبح دور وسائل الإعلام رئيسيا وضروريا بعد أن دخلت كل بيت ممثلة في التلفزيون وخاطبت جميع أفرادها وتحولت من الترفيه التسلية إلى مصدر للمعلومات والتربية، ووصل العالم لعصر السماوات المفتوحة، حيث أصبح الكون عبارة قرية صغيرة تتناقل أخبارها قنوات مختلفة وتبثها لكل بني البشر دون تمييز، بحيث يمكن لأي إنسان أن يعيش الحدث ساعة وقوعه في أي منطقة من الكرة الأرضية حيث اختصرت المسافات واختصر الزمن. بذلك أصبح الفرد عرضة لغزو إعلامي غريب على عاداته وقيمه قد يتفق أو يختلف مع ما يريه المجتمع في أفراد، وأكثر أفراد المجتمع تأثرا بوسائل الإعلام هم الأطفال بحكم تكوينهم النفسي والعقلي حيث أن تفكيرهم النقدي محدود في هذه المرحلة، لذلك فهم على استعداد لتقبل كل ما يأتيهم من خلال وسائل الإعلام.

فالقيم التي تحملها الرسالة الإعلامية تتسلل لا إراديا لوجدان الطفل لتظهر بعد ذلك سلوكا وتصرفا عنده قد لا يرضى عنه المجتمع لتضاد ما يتلقاه الطفل في الأسرة وفي المدرسة من وسائل الإعلام فيحدث للطفل انفصال اجتماعي عن النسق القيمي للمجتمع مما يهدد بكارثة قيمية لدى أطفالنا. وقد أكدت الكثير من البحوث الدور الحيوي الذي تلعبه وسائل الإعلام في بناء الشخصية، ولذلك يجب أن تستثمر جيدا وتوظف بطريقة صحيحة حتى تؤتي ثمارها المرجوة في مجال التربية، وبناءا على ما ثبت من علاقة بين وسائل الإعلام والتربية، وحيث أن هدف التربية هو غرس القيم في الناشئة لتظهر بعد ذلك سلوكا وأفعالا، وبذلك فإن وسائل الإعلام بما تنسم به من دور إعلامي وتنقيفي وترفيهي تلعب دورا كبيرا في بث القيم في نفوس الناشئة.

وبناء على ما سبق نؤكد أن وسائل الإعلام قوة حضارية تعمل على رفع مستوى المجتمع ثقافيا

واجتماعيا وتربويا وسياسيا، ووسائل الإعلام ليست مجرد إعطاء معلومات ومعارف للناس وإنما تهدف أيضا إلى عملية تغيير الاتجاهات، وتحريك الجماعات للعمل في اتجاهات معينة لتحقيق الأهداف المنشودة، وتحقيق التنمية، ونشر الأفكار وتكوين الشخصية، كما يمكن لوسائل الإعلام أن تساهم في حل مشكلات التنمية الخاصة بالمجالات الزراعية والصناعية والصحة والتعليم ومحو الأمية (نجوى الطوي، 1980: 20)

تلعب وسائل الإعلام دورا هاما في تعميق المفاهيم الشائعة في المجتمع وترسيخ القيم السائدة فيه وتثبيت العلاقات القائمة بين المؤسسات الجماهير. "وتقوم وسائل الإعلام بتقديم مواقف درامية تعكس من خلالها اتجاهات نحو الحياة، إنها تقدم للجماهير فلسفة حياة زاخرة بالقيم و المعايير". (إبراهيم إمام، 1975، 99).

يتعرف الإنسان على الواقع المحيط به من خلال وسائل الإعلام، وذلك علاوة على تجاربه الشخصية، وخبراته الفردية فالإنسان يتلقى الكثير من المعلومات من غيره إما عن طريق وسائل الإعلام وإما عن طريق الاتصال الشخصي، ومن ثم فوسائل الإعلام أدوات أساسية في عملية التطبيع والتنشئة الاجتماعية، ويؤثر التلفزيون في الاتجاهات والقيم والسلوك الاجتماعي نتيجة لما يقدمه من معلومات وحقائق وأفكار وآراء بهدف إحاطة المشاهدين علما بموضوعات معينة تستميلهم نحو أنماط معينة من السلوك. (نجوى الطوي، 1980: 21-24).

تظهر خطورة وسائل الإعلام في المجتمعات المتخلفة بضرورة خاصة في فترات التغيير الاجتماعي الذي يمر به أي مجتمع. وفي المجتمعات النامية نجد أن وسائل الإعلام تخضع خضوعا تاما لسلطة الدولة ومن ثم يتم تسخيرها في نشر الاتجاهات والقيم الملائمة مع التوجه السياسي للسلطة، فمن خلال الاستعانة بقيادة الرأي أو المختصين عن طريق النشر في الصحف أو عبر البرامج الإذاعية أو التلفزيونية يتم الترويج والدفاع عن تلك القيم والاتجاهات بصورة مباشرة، هذا فضلا عن الأعمال والمواد الأخرى (المسلسلات والأفلام) التي تعني بذلك.

مما سبق يمكن التأكيد على أن اكتساب القيم النفسية والخلقية مسؤولية مشتركة بين البيت والمدرسة والمجتمع، وأجهزة الإعلام والثقافة، ولكن واقع الأسرة معروف فنسبة الأمية مرتفعة وبالتالي فهي كثيرا ما تقدم أشياء بعيدة عن قيم المجتمع ومثله العليا. أما المدرسة فهي بيئة العلم والمعرفة، وليتها تؤدي هذا الدور عن طريق المعلم القدوة، وبواسطة المناهج والمقررات التي تناسب

عمر الأطفال وترسيخ الإيمان بعقيدة المجتمع وعاداته وتقاليده لأن الهدف يختلف عن الأسلوب والوسيلة والانفصام هنا خطير، لأننا نريد أن يشبع جومن الإيمان والتقوى لا تتفصل فيه مادة الدين عن الحياة، بل يمتزجان مما يزيد من رغبة الصغير في معرفة ربه ودينه ويتخذ منه دستوراً لحياته. (عبد التواب يوسف أحمد، 1986: 377).

إن وسائل الإعلام الصحيحة هي التي تعمل على زيادة فرص الاحتكاك للأفراد بمواد ثقافية ترفع من مستواهم الفكري والفلسفي والوظيفي، وتوسع مداركهم العقلية والمعرفية وتساعدهم على قضاء وقت فراغهم على خير وجه فيما يجدي وينفع برغبة ذاتية في العلم مما يساعدهم على فهم الحياة والتغلب على مشكلاتها والإسهام في تشكيل اتجاهات الأفراد وترسيخ القيم والعادات الصالحة فيهم مما يؤهلهم للتوجه نحو التنقيف بدافع شخصي دون توجيه من مدرس أو مرشد اجتماعي.

هنا يأتي دور القائمين على تنشئة الطفل في تحديد الإطار القيمي المرغوب في الخطاب الثقافي المعروض من خلال التلفزيون، وبالرغم من أن لكل مجتمع أخلاقياته الخاصة به والتي يحاول غرسها في أطفاله وبالرغم من اختلاف المجتمعات في قبول أو رفض قيم معينة إلا أنه - وكما سبق أن ذكرنا - هناك شبه اتفاق في تعريف القيم وأهميتها بالنسبة للفرد والمجتمع . لذا فمن الواجب على معد الرسالة الإعلامية أن يعمل من خلالها على إزالة القيم المتفق على سلبيتها وزرع بدلها القيم المتفق على ضرورتها للمحافظة على توازن الفرد وتماسك المجتمع ووحده.

هكذا نخلص إلى أن وسائل الإعلام تلعب دوراً كبيراً في تربية وتشكيل شخصية الطفل والتأثير على قيمه من خلال توحده بالنموذج المقدم في وسائل الإعلام والذي يعكس واقع حياته فيسلك الطفل وفقاً لما يعتقد أنه سلوك مرغوب من الجماعة وله ناتج يرضيه ويعزز مكانته وذاته، وأكثر وسائل الإعلام تأثيراً على القيم التي يمتصها الأطفال هي التلفزيون بما يقدمه من مواد متنوعة تحظى بقبول الطفل فيتابعها ويتأثر بمحتواها.

المراجع:

(01)- إبراهيم إمام (1975). الإعلام والاتصال بالجماهير. الطبعة الثانية، القاهرة، الأنجلوالمصرية.

(02)- أبو حامد الغزالي (1975). إحياء علوم الدين. الجزآن الثاني والثالث، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

- (03)-أبو حامد الغزالي (1975). أيها الولد المحب. تحقيق وتعليق: عبد الله أحمد أبوزينة، الطبعة الأولى، بيروت، دار الشروق.
- (04)-أحمد الفنيش (1999)، أصول التربية، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة.
- (05)-أحمد شلبي (1980). المجتمع الإسلامي : أسس تكوينية - أسباب ضعفه - وسائل نهضته. الطبعة الخامسة ، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
- (06)-أحمد علي كنعان (1990). القيم التربوية في شعر الأطفال في القطر العربي السوري. رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق.
- (07)-أسامة سعد أبوسريع (1993). الصدائقة من منظور علم النفس. عالم المعرفة عدد 179 يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، نوفمبر.
- (08)-أنور الجندي (1977). مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام، القاهرة، دار الاعتصام.
- (09)-ديفيدا جوسلين (1972). المدرسة والمجتمع العصري، ترجمة : محمد قذري لطفي وآخرون، القاهرة، عالم الكتب.
- (10)-سامية عبد الرحمن (1992). القيم الخلقية، دراسة نقدية في الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار النهضة المصرية.
- (11)-سناء الخولي (1979). الزواج والعلاقات الأسرية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
- (12)-سيد إبراهيم الجبار (1978). التوجيه الفلسفي والاجتماعي للتربية، الكويت، وكالة المطبوعات.
- (13)-ضياء زاهر (1986). القيم في العملية التربوية، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة، مطبعة النهضة.
- (14)-عبد التواب يوسف أحمد (1986). مدى تأثير القيم العربية الإسلامية على برامج الأطفال في دول الخليج. انظر كتاب ماذا يريد التربويون من الإعلاميين، ج 2 ط 2، الرياض، مكتب التربية لدول الخليج.
- (15)-عبد اللطيف محمد خليفة (1991). ارتقاء القيم، عالم المعرفة، عدد 160، يصدرها

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت.

(16)-فؤاد البهي السيد (1958)، علم النفس الاجتماعي، القاهرة، دار الفكر العربي.

(17)-فوزية فهيم دياب (1966). القيم والعادات الاجتماعية، مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية في مصر، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

(18)-محمد الهادي عفيفي (1970). التربية والتغير الثقافي، الطبعة الثالثة، القاهرة، مكتبة الأنجلوالمصرية.

(19)-محمد الهادي عفيفي (1971). في أصول التربية، القاهرة، مكتبة الأنجلوالمصرية.

محمود السيد سلطان. (1981). مفاهيم تربوية في الإسلام، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف.

(20)-منظمة اليونيسكو (1985). كتاب مرجعي في التربية السكانية، مكتب التربية الإقليمي للتربية السكانية الجزء الثاني.

(21)-نجوى الطوبى (1980). الأثر الثقافي والاجتماعي للتلفزيون في المجتمعات النامية. مجلة الفن الإذاعي، العدد 88 القاهرة، معهد الإذاعة والتلفزيون، جويلية.